

المحاضرة الرابعة عشر: العجائبية في الأدب الشعبي.

تمهيد:

تعد العجائبية في النصوص والخطابات الأدبية الشعبية فضاء حافلا بالمغامرات الخارقة والعجائب المبهرة تجعل المتلقي يحنح نحو عوالم جديدة، يمتزج فيها الواقع بالخيال، والحقيقة بالسحر، وتفتح له نوافذ يطل من خلالها إلى واقع جديد يلتقي فيه العجيب والغريب والخارق، وقبل الغوص في تجليات العجائبية في الأدب الشعبي، لا بد أن نقف أولا عند المفهوم اللغوي والاصطلاحي لمصطلح "العجائبية".

أولا - مفهوم العجائبية:

1 - لغة:

تدرج لفظة العجيب ضمن الجذر اللغوي "ع ج ب"، الذي يحيل بدوره على صيغ ومشتقات متنوعة مثل: عجب، عجيب، عجاب، عجا...، وفي هذا السياق تستوقفنا دراسة أجرت مسحا إحصائيا لمادة "عجب" في القرآن الكريم، فأفرز هذا المسح أن مادة "عجب" جاءت في القرآن الكريم بصيغ مختلفة ((فتارة جاءت مصدرا "عجبا" نائبا عن صفة عجيب، وإنما يوضع المصدر موضع العجيب للمبالغة، وتارة فعلا "يعجبون، تعجب، عجت، يعجب"، وتارة أخرى يصرح بالصفة فتأتي على صيغة عجيب أو عجاب))⁽¹⁾، وهذه الاستعمالات جاءت بمعنى: ((التغير النفسي، أو الحيرة والدهشة التي تعترى الإنسان عند استعظامه الشيء أو إنكاره ما يرد عليه من الأمور))⁽²⁾.

2 - اصطلاحا:

يمكن النظر إلى بذور العجائبي في الإرث الأدبي الغربي من خلال تلك المقاربات المتناولة له، وعلى رأسها مؤلف "جورج كاستكس" Georges Castax المعنون بـ "الحكاية اعجائبية في فرنسا"، الذي يعد أول من تعرض للعجائبي بالتعريف، إذ يعتبره بأنه ((يتميز بالإيقام اللفظ للسري الغامض في إطار الحياة اليومية الواقعية))⁽³⁾، وهو في مؤلف آخر يراه ((الشكل الجوهرى الذى يأخذه العجيب عندما يتدخل التخيل في تحويل فكرة منطقية إلى أسطورة، مستدعيا الأشباح التي يصادفها أثناء تشرده المنعزل))⁽⁴⁾، ووسائل نشوئه

¹ - الخامسة علاوي، العجائبية في الرواية الجزائرية، أطروحة دكتوراه (مخطوط)، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإنسانية، قسنطينة، الجزائر، 2008، 2009، ص 94.

² - إبراهيم صدفة، بنية العجائبي في رواية كواليس القداسة لسفيان زدادقة، محاضرات الملتقى الدولي السادس عبد الحميد بن هدوقة للرواية، مديرية الثقافة، برج بوعريش، الجزائر، 2003، ص 87.

³ - Pierre Georges castax, Le conte Fantastique en France de Nodier de Maupassant, Librairie José corti, Paris, 1951, p 08.

⁴ - Pierre Georges castax, Anthologie du conte fantastique Français, Librairie José corti, Paris, 2004, p 05 -08.

كثيرة، منها: ((الحلم والوساوس والخوف، والندم، وتقريع الضمير، وشدة التهيج العصبي والعقلي وكل حالة مرضية))⁽⁵⁾.

والجدير بالذكر أن مقاربة "جورج كاستكس" للعجائبي كجنس أدبي تمت تاريخيا من خلال معالجته لبعض الأعمال الكلاسيكية الأولى التي تضمنت شيئا من الخارق وال فوق طبيعي، أما المقاربة الدلالية له فقد قامت على رصيد الموضوعات المتكررة والمتطورة للعجائبي باعتباره نسجا نصيا، وهذا في معظم الحكايات العجائبية، وقد حصرت هذه التيمات في ستة أشكال هي: ((الجن والأشباح، الموت ومصا صو الدماء، المرأة والحب، الغول، عالم الحلم وعلاقاته مع عالم الحقيقة، التحولات الطارئة في الفضاء - الزمن))⁽⁶⁾.

أما "إيرين بيسيير" Irène Bessiere فإنها ((تحاول أن تؤسس تعريفا أكثر تماسكا، يعتمد على القول بأن الفانتاستيك يبني على المفارقة والتناقض، وسط انسجام لغوي أسلوبي))⁽⁷⁾. كما جاءت مقاربات أخرى تجعل من العجائبي ((مظهرا من مظاهر الذهنية البدائية، ولذلك فهو دائم الارتباط بالمعتقدات والطقوس الميثولوجية))⁽⁸⁾، وهذا ما تنادي به المقاربة الأنتروبولوجية.

وتعتبر المقاربة النفسية من المقاربات التي نظرت للعجائبي، فهي تنظر إليه على أساس أنه ((شكل من الأشكال التي تترجم الصراع بين رغبات الإنسان والوسائل التي يحقق بها هذه الرغبات))⁽⁹⁾.

أما المقاربة البنوية للعجائبي فيحمل لواءها "تودورف"، الذي يعد تصوره لجنس العجائبي واحدا من أشهر وأدق المفاهيم لضبط حدود هذا المصطلح إجرائيا، يقول فيه: ((هو التردد الذي يحسه كائن لا يعرف غير القوانين الطبيعية، فيما يواجه حدثا فوق طبيعي حسب الظاهر))⁽¹⁰⁾، ولقد حاول أن يبين لنا طبيعة العجائبي وحقيقته التي تعتمد وتؤسس على عدة مكونات كالحيرة والتردد، وما يتجاوز حدود المنطق والعقل، إلا أنه وضع شروطا لتحقيقه، وهي ثلاثة:

- الأول: ((لا بد أن يحمل النص القارئ على اعتبار عالم الشخصيات كما لو أنهم أشخاص أحياء، وعلى التردد بين التفسير الطبيعي والتفسير غير الطبيعي للأحداث المروية))⁽¹¹⁾، هذا يعني أن يحمل النص المتلقي على اعتبار عالم الشخص من عالم الواقع لا من عالم التخيل الإبداعي، مما يؤدي إلى إثارة تردد وحيرة في نفسيته.

⁵ Ibid, p 06.

⁶ - شعيب خليفي، شعرية الرواية الفانتاستيكية، دار الأمان، المغرب، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2009، ص 29.

⁷ - المرجع نفسه، ص 30.

⁸ - المرجع نفسه، ص 30.

⁹ - المرجع نفسه، ص 37.

¹⁰ - تزيفيتان تودوروف، مدخل إلى الأدب العجائبي، تز: الصديق بوعلام، دار الكلام، الرباط، ط1، 1993، ص 18.

¹¹ - المرجع نفسه، ص 18.

- الثاني: ((قد يكون هذا التردد محسوسا، بالمثل، من طرف شخصية، فيكون دور القارئ مفضوضا إليها، ويمكن بذلك أن يكون التردد واحدة من موضوعات الأثر، مما يجعل القارئ - في حالة قراءة ساذجة - يتأهى مع الشخصية))⁽¹²⁾.

- الثالث: ((ضرورة اختيار القارئ لطريقة خاصة في القراءة، من بين عدة أشكال ومستويات، تعبر أي الطريقة - عن موقف نوعي يقصي التأويلين الأليغوري (المجازي) والشعري (الحرفي أي غير التمثيلي أو المرجعي))⁽¹³⁾، ومعنى ذلك أن يتبنى القارئ موقفا إزاء النص المقروء، فمن المهم أن يختار نمط القراءة المناسب له، وفي الوقت نفسه له الحق أن يستبعد القراءة التأويلية المجازية.

ثانيا - تجليات العجائبي في النصوص الأدبية الشعبية:

1 - عجائبية الحدث:

تهدف وظائف الراوي العجائبي في مجملها إلى تقديم أحداث فوق طبيعية وذلك بطرق وأساليب تمنح النص سردية حقيقية، تخلق تفاعلا وانفعالا⁽¹⁴⁾ بين أحداث الحكاية وهذا الراوي من جهة وبين المروي له من جهة أخرى، فالراوي في الحكاية العجائبية يبحث عن خلق تنوعات عدة تختلف مصادرها وطرق معالجتها، لكنها تشترك جميعها حول لا مألوفية الحدث وفوق طبيعته، في بنية سردية يتجاوز فيها الواقعي إلى جانب نقيضه، ويمتدح الخيال فيها بالحقيقة وتنقلنا إلى عالم السحر والحلم.

2 - عجائبية الشخص:

الشخصية في المحكي العجائبي هي ((القطب الذي منه ينطلق الحدث فوق الطبيعي، وعليه يقع، أي أنها إحدى المكونات الأساسية في تحديد الفانتاستيك من خلال المميزات الخلافية، والمتجلية في الأوصاف والسلوك النفسي والمادي والأفعال المتجسدة انطلاقا من الحركات والأقوال))⁽¹⁵⁾، فالشخصية العجائبية التي نقصدها هي تلك الشخصية الناشئة من الواقع والمعبرة عن مستوياته المختلفة، وفجأة يطغى عليها طابع التعجب والتعريب، وفيها يقول سعيد يقطين: ((هي ذات الملاح المفارقة لما هو قابل للإدراك أو التصور، وذلك لكونها متباينة لما هو مرجعي أو تجريبي، الشيء الذي يجعلها قابلة للتمثل والتوهم))⁽¹⁶⁾.

تميز الشخصية العجائبية بخاصيتين أساسيتين هما:

أ - التعارض: تعتبر سمة التعارض من أهم السمات التي تتميز بها الشخصية العجائبية، حيث اعتبرها شعيب خليفني من ((خصائص الشخصية الأدبية، سواء في المحكيات الأدبية العادية أو في المحكي العجائبي، فهي تسهم في تحديد الشخصية ورسمها))⁽¹⁷⁾، انطلاقا مما يميزها من خصائص تضادية وأخرى تمييزية، هذه

¹² - المرجع السابق، ص 18.

¹³ - المرجع نفسه، ص 18، 19.

¹⁴ - شعيب خليفني، شعرية الرواية الفانتاستيكية، ص 67.

¹⁵ - المرجع نفسه، ص 197.

¹⁶ - سعيد يقطين، قال الراوي؛ البنيات الحكائية في السيرة الشعبية، ص 93.

¹⁷ - شعيب خليفني، شعرية الرواية الفانتاستيكية، ص 202.

الخصائص التي تركز عليها النصوص و((تعمل على تكثيفها ووسمها بالغرابة والعجب والخرق))⁽¹⁸⁾، وهذا من شأنه خلق شخص مقابل للشخص المألوفة، وهكذا عد مبدأ التعارض مكوناً أساسياً من مكونات الشخصية العجائبية.

ب - التحول والإمتساخ: لا تشكل الشخصية العجائبية من التعارض فحسب، ولكن من التحول والإمتساخ أيضاً، وكلها عوامل إثراء وتعدد وتنوع لشخص وأحداث مرويات النصوص الشعبية السحرية، التي تتميز ((بتعددية الشخص الذين يأتون بأشكال عجائبية مختلفة عن المؤلف، وبها تحولات خارجية كأن تكون أعضاء الكائن المسخ مبالغ في حجمها أو ناقصة، وهي امتساخات تؤكد الدهشة، أو تحولات داخلية تتعلق بتوجات الداخل النفسي والذهني وعالم اللاوعي المظلم وما يفرزه من استيهامات وهذيان))⁽¹⁹⁾.

3 - عجائبية الزمن:

يعد الزمن محور الحكى في عالم السرد، وعموده الفقري، كما هو محور الحياة ونسيجها، لأنه ((يعمق الإحساس بالحدث، وبالشخصيات لدى المتلقي⁽²⁰⁾، فهو مؤثر مهم في باقي العناصر السردية الأخرى (المكان، الحدث، الشخص) وينعكس عليها، وهو حقيقة مجردة لا تظهر إلا من خلال فعلها في العناصر السردية الأخرى.

وهذا يكون الزمن العجائبي في النص الأدبي الشعبي قائم على عجائبية الحدث وكسر قانون السببية، فتبدو الأحداث غير قابلة للتفسير بنواميس الحياة الواقعية التي يعيشها الإنسان، وهنا يبدو عنصر التلاعب بالزمن الحقيقي واضحاً في مختلف النصوص الأدبية الشعبية لصالح الراوي الذي يضفي عليها لمسة فنية تغيب المنطق والعقل، وتحضر الخيال واللاواقع، وبذلك فإننا - لا محالة - أمام نصوص خيالية تجاوزت المؤلف إلى اللامألوف، تجاوزاً يثير قلقاً في نفسية المتلقي، وتدفعه إلى التردد في تفسير الوقائع ولكنه بدون شك يقر في النهاية ((أن قوانين الواقع تظل غير ممسوسة، وتسمح بتفسير هذه الأحداث الموصوفة⁽²¹⁾، مما يضفي على الأحداث صفة العجائبية التي لا تتولد من الوقائع أو الأحداث وحدها، وإنما من خلال نسج الراوي لها بإتقان كبير.

4 - عجائبية الأمكنة:

يترك المكان أثراً في نفسية المتلقي، الذي يبني دلالاته نسبة لتصويراته الخاصة، وبالتالي تنشأ ((تسميات وتنوعات مهمة في تعيين أنواع الفضاءات، فهناك الفضاء السحري أو الأسطوري والعجائبي والواقعي والطبيعي والاصطناعي...))⁽²²⁾، ومن هنا تبرز أهمية المكان العجائبي بخاصة، ((لأن العجائبي

¹⁸ - المرجع نفسه، ص 198.

¹⁹ - باية غيبوب، الشخصية الأنثروبولوجية العجائبية في رواية مائة عام من العزلة ل: غابريال غارسيا ماركيز، أنماطها ومواصفاتها وأبعادها، دار الأمان، الأردن، دت، ص 206.

²⁰ - محمد بوعزة، تحليل النص السردى؛ تقنيات ومفاهيم، ص 87.

²¹ - تزيفيتان تودوروف، مدخل إلى الأدب العجائبي، تز: الصديق بوعلام، ص 65.

²² - سعيد يقطين، قال الراوي؛ البنيات الحكائية في السيرة الشعبية، ص 238.

المتمثل في الظهورات والهواجس والاستيهامات والصور والمواقف والأحداث فوق الطبيعية يحتاج في تجليه إلى إمكانية، هذه التي يجب أن تتلاءم مع طبيعته المرعبة أو المعجزة والمثيرة للتساؤل والتردد، هذه الإمكانة خلقتها لغة الراوي لتصبح مسرحاً للتحويلات ولإعطاب الإدراك، بحيث تزول الحواجز بين الزمان والمكان، ويندغم كل شيء في تلك الطبيعة الهذيانة للمشاهدات))⁽²³⁾.

يمكن القول هنا بأن هناك فرقا تركيبيا كبيرا بين المكان الواقعي والعجائبي، فالأول له وجود فعلي محدد موجود في الطبيعة، وفي كل بيئة لا يراد له اسم معين يعرف به غير أننا نسلم بوجوده كالجبال والأودية والصحاري...، أما المكان العجائبي فهو عالم مليء بالإثارة حيناً وبالفرع حيناً آخر، وتجدد الإشارة إلى الدور الكبير الذي يؤديه الراوي الشعبي في نمذجة المكان العجائبي، فقد يجترئه من الواقع، فيحرك شخصه وأحداثه فيه.

ثالثا - وظائف العجائية في الأدب الشعبي:

1 - الوظيفة الاجتماعية: اللجوء إلى هذا النوع من الأدب يهدف بالأساس إلى التطرق إلى قضايا جد مهمة في الوسط الحياتي الاجتماعي، همّشت أو بالأحرى غيّبت لوجود أعداء كثيرة، فتستخدم الأدب العجائبي كقناع للخوض فيها، فيصبح سلاحاً ذو حدين: خلق عالم خيالي جد مستفز وممتع أحيانا وقول ما لا يقال وكشف الغطاء عن جوانب جد مهمة في الحياة⁽²⁴⁾.

2 - الوظيفة الأدبية: وتتحدد من خلال أربعة مظاهر، هي:

أ - ما يخص المتلقي: ((إذ يخلق العجائبي أثراً خاصاً في القارئ خوفاً أو هولاً أو حب استطلاع))⁽²⁵⁾.

ب - الوجه الجمالي الفني: فبمجرد اجتماع عالم الحقيقة مع عالم الخيال يصبح المستحيل ممكناً، ونجد المتلقي في حالة دهشة واستغراب وهذا ما يجعله يجر في هذا العالم الجديد من دون سابق إنذار.

ج - قدرة العجائبي على خدمة السرد والاحتفاظ بالتوتر⁽²⁶⁾.

د - ما يتيح العجائبي للمحكي من قدرة تنويعه تدرأً عنه رتابة التوتر، وتمثل هذه القدرة في مظهر "الحكاية داخل الحكاية"⁽²⁷⁾.

رابعا - أشكال العجائبي في الأدب الشعبي:

²³ - حسين وعلام، العجائبي في الأدب من منظور شعرية السرد، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2010، ص 160.

²⁴ - ينظر: لؤي علي خليل، عجائبية النثر الحكائي؛ أدب المعراج والمناقب، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، ط1، 2007، ص 85.

²⁵ - المرجع نفسه، ص 88.

²⁶ - المرجع نفسه، ص 88.

²⁷ - المرجع نفسه، ص 88.

1 - العجيب المبالغ: ينتج هذا اللون من العجائبي عن طريق الوصف المبالغ للظواهر من طرف الراوي، فيخرق بذلك القوانين المعتادة وينقل المروي له معه إلى عوالم جديدة لا تخضع إلى أية قوانين أو قواعد.

2 - العجيب الغريب: وينسحب ((على كل ظهور للعجيب الذي يحدث نادرا وينقطع مع المؤلف والعادي))⁽²⁸⁾، فالراوي لا يكتفي باستحضار العناصر فوق الطبيعية عند وصفه للظواهر المختلفة، بل يلجأ إلى تخيلته لاستكمال الصور العجيبة لها، فحينما يصف الراوي الشعبي مثلا "طائر الرخ"، يقول عنه بأنه طائر عظيم الخلق، كبير الجثة كالجلبل، مع العلم أن هذا النوع من الطيور لا وجود له في عالم الحيوان بتاتا، وبالتالي يصعب على الإنسان إدراكه، لأنه أكبر بكثير من حدود تصور العقل البشري، ولكن من جهة أخرى ((لا يمكن للإنسان رفضه لأنه لا يملك دلائل وبراهين تساعد على تكذيب هذا المروي العجيب الغريب))⁽²⁹⁾، وينتظم ضمن هذا الصنف من العجيب ((العجيب اللاهوتي الذي يشمل نشأة الكون ومعجزات الأنبياء والعجيب السحري والتنجيمي والشعوبي والأعجوبي او صانع المعجزات))⁽³⁰⁾.

3 - العجيب الوسيلى: يلجأ الراوي في هذا اللون من الحكى إلى استخدام العناصر السحرية لخلق العجيب كمكسنة المشعوذة التي نجدها في الكثير من الحكايات وإكسير الحياة الذي يكون مقصد الأبطال والفرسان، والعصا السحرية...، غير أن هذا الحكى أصبح لا يثير الدهشة والانبهار لدى المروي له اليوم بحكم التكرار والألفة وتعوده على هذا النوع من العجيب.

4 - الإمساخ: ويستعمل في السرد القصصي من أجل الحصول على الجزاء، إما أن يكون إيجابيا وذلك بتحويل الفنان تمثالا منحوتا إلى شابة جميلة يعشقها، أو سلبيا ويكون في شكل عقاب، مثل أن يتحول الأشخاص الذين يحضرون عرسا محرما إلى صخور وحجارة، وقد يكون في شكل انتقام، حيث تحول الساحرة البطل إلى ضفدع... الخ، وعلى هذا الأساس فالإمساخ يمثل بعدا عجائبيا يتجاوز حدود العقلانية والمنطقية ويظهر عادة في النصوص الحكائية ذات الأبعاد الأسطورية الضاربة في عمق الموروث الشعبي.

خاتمة:

وفي الأخير نقول: إن الأدب الشعبي المغربي يحفل بقصص الأعاجيب والحوارق، ويمتلئ بالخرافات التي تسبح في عوالم الخيال واللامحدود الذي لا يعرف المستحيل، لتعبر عن عبقرية الإنسان المغربي وتصوراته للكون والوجود، وهي جديرة بالدراسة والبحث وفق مختلف المناهج العلمية المعروفة على الساحة الأدبية والنفسية والاجتماعية.

²⁸ - توفيق فهد، العجيب في الحيوان والنبات والمعدن من كتاب العجيب والغريب في إسلام العصر الوسيط، دار الحياة، الدار البيضاء، ط1، 2002، ص 94.

²⁹ Mercia Eliade, Aspects du mythe, édition Gullniard, Paris, 1955, p 177.

³⁰ - توفيق فهد، العجيب في الحيوان والنبات والمعدن من كتاب العجيب والغريب في إسلام العصر الوسيط، ص 94.